

المحاضرة السابعة: أعلام الفكر القومي (عبد الرحمن الكواكبي - ساطع الحصري)

1. عبد الرحمن الكواكبي (1854 . 1902م)

يقول "عباس محمود العقاد" عن "عبد الرحمن الكواكبي" وهو يتحدث أن النوابع من أصحاب الرسائل ما يلي: ((.. أن النوابع من أصحاب الرسائل فئتان: فئة تظهر لأن أسباب نجاحها تمهدت وتم لها النجاح قبل فوات ذلك الأوان. وفئة أخرى تظهر لأن الحاجة إليها قد بلغت غايتها، وهي التي تظهر لتحقيق تلك الحاجة التي تبحث عن صاحبها، وله منها معين يذلل صعابها ويهدى إلى طريقها. و"الكواكبي" نموذج عزيز المثال لأولئك النوابع أصحاب الرسائل الذين اتفقت لهم أسباب زمانهم ومكانهم وأسباب نشأتهم ودعوتهم، تكاد سيرته أن تغرى بالكتابة فيها لأنها ((تطبيق)) محكم لتراجم هذه الفئة من نوابع الدعاة)).

يعود نسب المصلح "عبد الرحمن الكواكبي" كما يرى المؤرخون من آل الكواكبي أن نسب جدّهم يرقى إلى "علي بن أبي طالب . كرم الله وجهه . ويذكرون في شجرة هذا النسب علمين من أربيل هما: "صفي الدين الأربيلي" و"صدر الدين الأربيلي". ويقولون إنّ من أحفاد الشيخ "صفي الدين الأربيلي" رجلاً يسمى "علي سياه بوش" خرج إلى بلاد الروم ولما وصل إلى حلب بقي فيها، وتزوج من حلبية ثم رجع إلى بلاده، ومن ولده بيت "الكواكبي". ومن أحفاد "صفي الدين" كذلك ظهر "إسماعيل الصفوي" الذي جلس في تبريز علي عرش السلطنة وأسس أسرة الصفويين التي ظلت تحكم إيران قرابة مئة وأربعين عامًا، وقد اشتهرت الأسرة بنشر العلم والأدب، واهتمت برعاية المؤرخين والفقهاء والعلماء. وذكر هؤلاء المؤرخون من آل الكواكبي كذلك أن نسبهم كذلك من جهة الأم يتصل بـ "محمد الباقر بن علي زين العابدين" ابن الإمام السبط الشهيد "الحسين"، وأن في هذا النسب "بني الزهراء"، وجدّهم الشريف "أبا محمد إبراهيم" المنتقل من حران إلى حلب.

فهم فيما رأى مؤرخهم "حسن الكواكبي" (المتوفى سنة 1129 هـ)، قد جمعوا المجد من أطرافه في العلم والشهرة، وهم على ذلك نازحون طارئون قدموا حلب وسكنوها، فكانوا أعلامًا في الأدب والفقهاء والدين، لذلك كانت إليهم نقابة الأشراف في حلب على توالي الأجيال. ويبدو أن أول من اشتهر منهم بالكواكبي كما يقول المؤرخون هو "محمد أبو يحيى الكواكبي بن صدر الدين الأربيلي"، الذي انتقل إلى حلب واستقر فيها، وعرف بـ "الكواكبي" لأن في بداية حياته كان حدّادًا يعمل بالمسامير الكواكبية، ثم فتح الله عليه فسلك طريق الصوفية وحصلت له شهرة زائدة حتى كانت الأمراء تأتي إلى بابه، وعندما توفي سنة 897 هـ دفن بجوار الجامع المعروف بالجامع الكواكبي بمحلة الجلّوم . وهي من أحياء حلب اليوم المشهورة . وجامعه يعرف بجامع "أبي يحيى الكواكبي" هو جدّ الأسرة الكواكبية التي عملت خلال أربعة قرون في ميادين العلم والفقهاء فسطروا صفحات لامعة تشهد بفضيلهم وتمجّد ذكرهم على الأيام، حتى كان النصف الثاني من القرن 13 هـ ظهر "أحمد بهائي بن محمد بن مسعود الكواكبي" والد المصلح "عبد الرحمن" والذي يذكر أنه عاش ما بين (1245 هـ . 1300 هـ) ، وكان عالما وفقهيا اشتهر بعلم الفرائض وتحرير الصكوك، واشتغل بأمانة الفتوى مدة، وعين عضوًا في مجلس

إدارة الولاية، وكان من علماء حلب الذين يعرفون اللغة التركية، كما كان متوليًا على جامع جدّه "أبي يحيى وخطيبًا وإمامًا فيه.

تقول الأوراق الرسمية إن "عبد الرحمن الكواكبي" ولد في 23 شوال سنة 1265 هـ (1848 م)، ويقوا ابنه الدكتور "أسعد" إنه ولد بعد ذلك بسنوات، وطلب تصحيح تاريخ المولد لدخول الانتخابات، وإنما كان مولده الثابت من سجلات الأسرة في 23 شوال سنة 1271 هـ (1854 م)، وتوفي والدته سنة 1276 هـ (1859 م)، وهو في نحو السادسة من عمره، أو هو قد ناهز العاشرة إذا أخذنا بالرواية الرسمية. والمرجح أنه كان أصغر من سنه في الأوراق الرسمية عند وفاة والدته، فإن أباه أودعه حضانة خالته السيدة "صفية بأنطاكية، فأقام بها إلى سنة 1282 هـ.

ويقال أيضا أنه مكث عند خالته ثلاث سنوات، تعلم خلالها اللغة التركي، وتابع دروسه في القراءة والكتابة، لما تميزت به خالته وهي المشهورة بين أتراها، بذكائها الواسع وإجادتها للقراءة والكتابة والخط، في ذلك الزمان الذي تجد كثيرًا من الفحول يقفون للمعرفة أو الثقافة. بعدها عاد إلى حلب فعُنى به والده عناية بالغة، وأرسله إلى مدرسة الشيخ "طاهر الكلزي" في قاعة الصقال بحلب بجوار خان الوزير، فتعلم العلوم العربية والتركية والفارسية، لكنه لم يلبث أن سافر ثانية إلى أنطاكية سنة 1281 هـ (1864 م) وقد بلغ الحادي عشرة من عمره، وفي هذه المدينة دوام على مدرسة خصوصية من أساتذتها بعضُ أنسبائه لأمه العلامة "عبد الرحمن العلي" عضو شورى الدولة، والسيد "نجيب النقيب" عمّ والدته، وكلاهما مشهوران لعصرهما. مكث "عبد الرحمن" سنة واحدة في أنطاكية ثم رجع إلى حلب وقد بلغ الثانية عشر من عمره، فأدخله والده في المدرسة الكواكبية التي كان والده يديرها ومدرسًا بها، فتعلم فيها مبادئ الدين والعربية. وكان من أساتذته فيها الشيخ "عبد القادر الحبال" والشيخ "محمد علي الكحيل" أمين الفتوى بحلب وغيرهما من فحول العلماء، كما تلقى العلوم العصرية على يد الأستاذ "خورشيد" وهو من أدباء الأتراك المشهورين، فأتقن التركية والفارسية تكلّمًا وكتابة.

وإذا كانت الظروف لم تتح للكواكبي دراسته إحدى اللغات الأوروبية الغربية، فلقد ظهرت في كتاباته آثار قراءة المترجمات عن هذه اللغات، وخاصة كتابه: ((طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد))، كما أن ثقافته لم تقتصر على العلوم التي اقتصر عليها حياة العربية في عصور انحطاطها، بل امتدت دراساته لتشمل كذلك المنطق والرياضة والطبيعة والسياسة، إلى جانب العلوم الشرعية التي كانت سائدة في مثل البيئة العلمية التي نشأ المفكر "عبد الرحمن الكواكبي".

وبعد أن تابع "الكواكبي" دراسته في المدرسة الكواكبية راح يثقف نفسه بمطالعة الكتب من مختلف المصادر، وخاصة ما كان مترجمًا إلى التركية أو الفارسية، حتى الجرائد التي كانت إليه بمختلف الوسائل. واشتهر قلمه بين الخاصة، فما إن بلغ الثانية والعشرين حتى أصبح محررًا غير رسمي في صحيفة الحكومة (فرات) التي تأسست عام 1867 م التي ظلت تصدر بالعربية والتركية حتى عام 1911 م، ولم يمضي عام واحد حتى عيّن المحرر الرسمي للصحيفة. وفي عام 1877 م، وبالإشتراك مع السيد "هاشم العطار" أنشأ "الكواكبي" صحيفة تولى تحريرها بنفسه بعيدًا عن الإطار الحكومي سماها (الشهباء)، لكن هذه الصحيفة لم تستمر

طويلاً، وعطلت عن العدد السادس عشر، بعد أن لم تستطع السلطة العثمانية تحمل جرأته في النقد فأوقفتها. ثم واصل نشاطه الصحفي فأصدر عام 1879 م باسم صديق آخرله جريدة "اعتدال" وسار فيها على نهج (الشهباء) فعطلتها السلطة، بعدها تابع الكتابة في صحف أخرى تصدر في بلدان عربية وغربية مثل جريدة (النخلة) بنسختها العربية والإنجليزية، وجريدة (الجنان) و(ثمرات الفنون) و(الجوائب) و(القاهرة) و(المؤيد)، (المنار)، و(النجاح)، و(الأهرام) و(المصباح)، وربما كتب في غيرهم.

بعد أن تعطلت صحيفته، أنكب "الكواكبي" على دراسة الحقوق حتى برع فيها، وعيّن عضواً في لجنة المالية والمعارف العمومية، والأشغال العامة، (النافعة)، ثم عضواً فخرياً في لجنة امتحان المحامين، وفي عام 1886 م، صار مأموراً للإجراءات. غير أن الأمر لم يستمر فبعد أن شعر أن السلطة العثمانية تقف في وجه طموحاته وتعرقل مشاريعه، حتى وصل بها الأمر إلى عزله وقطع رزقه، انصرف إلى العمل بعيداً عنها، فاتخذ مكتباً للمحاماة في حي (الفرافرة) قريبا من بيته وسراي الحكومة يستقبل فيه المظلومين من سائر الفئات وسائر أنواع الظلم، فيسعى إلى تحصيل حقوقهم ورفع ظلاماتهم بكتابة الشكاوي وإرشادهم إلى طرق الاحتجاج القانوني، وقد كان يؤدي عمله في معظم الأحيان دون أي مقابل مادي، حتى اشتهر بلقب (أبي الضعفاء). ولكنه إلى جانب عمله الخاص هذا نجده قد شغل مناصب عامة كثيرة دون أن تفلح السلطة العثمانية في جعله تابعا لها، أو أن تحيده عن منهجه في نصرة الحق وخدمة المصالح العامة، لك واجه كل المتاعب في أعماله، وحاربه كل المستفيدين من هذا الفساد، فعندما عين سنة 1893 م رئيساً لبلدية حلب في زمن الوالي "عثمان باشا" قام بمشاريع عمرانية، وحاول أيضا الحفاظ على سوق المدينة الأثري ولكي يتسنى له ذلك أقام أعمدة حديدية تحول دون دخول الجمال إلى السوق التي كانت تصدم المارة وتملؤه أوساخا، كما درس مشروع (سد الفرات) وتجفيف (مستنقعات الروج)، وكلف بعض المهندسين باستثمار (حمامات الشيخ عيسى) بعد تجميلها وترميمها. إلا أن المكافأة التي تلقاها "الكواكبي" على اصلاحاته هي عزله، بسبب ضجر التجار الذين منعت دوابهم من دخول السوق، بل لم يكتفي الوالي بعزله، بل غرمه قيمة الأعمدة الحديدية، وفروق رواتب موظفي البلدية التي زادها لهما قطعاً لدابرة الرشوة. ومن أعماله أنه عندما تسلّم رئاسة المصرف الزراعي ورئاسة غرفة التجارة في حلب، قام بتأسيس شركة للتبغ بالتعاون مع تجار حلب، حتى يخفف الضغط على الفلاحين، إضافة إلى قيامه بإصلاحات أخرى تضرر منها أصحاب السلطة الذي كانوا يشاركون المهريين في تهريب التبغ، فأحرقوا مواسم الفلاحين من هذا المحصول، الأمر الذي اضطر "الكواكبي" إلى حلّ الشركة ودفع قيمة الأسهم المستحقة من ماله الخاص. وفي عام 1894 م عندما تسلّم وكالة المحكمة الشرعية بحلب تمكن أن ينظّم ديوان المحكمة، ويحارب شهود الزور المتظاهرين بالتدين الذين يجلسون أمام المحكمة على المصطبة، حتى كان يطلق عليهم (شهود المصطبة)، فكان رد فعلهم أن حاربوه حتى عزل. ثم بعد ذلك عين رئيساً للجنة بيع الانتفاع من الأراضي الأميرية الذي كان السلطان قد أصدر أمراً بتملكها وورثته، بدأ "الكواكبي" في توزيعها على الفقراء ويحججها على المتسلطين من رجال الدولة، فما كان منهم إلا أن عملوا على الاسراع لإقالته.

ولم يتوقف ظلم السلطة العثمانية على ظلم "الكواكبي" الذي لم تفلح في شراء ذمته بالمناصب، قامت باستغلال حادثة محاولة اغتيال والي حلب "جميل باشا" وألقت القبض عليه بتهمة التحريض على قتله، ولكن ساحته بُرئت وعُزل الوالي. ثم اتَّهَمته الحكومة بالاتصال بدولة أجنبية، على لسان والي حلب "عارف باشا" بالاتفاق مع دولة أجنبية على تسليم حلب، وبإقامة منظمة سرية تناوى نظام الحكم وحُكْم عليه بالإعدام أمام محكمة حلب المتأمرة مع الوالي، لكن "الكواكبي" قدّم تظلّمًا ورفض المحاكمة في حلب، كما قامت مظاهرة في حلب تطالب بالإفراج عنه، فاضطرت السلطة إلى إعادة محاكمته في بيروت، حيث قدّم دفاعًا شخصيًا عن نفسه، فبرّئت ساحته وتبين تزوير الوالي الأوراق التي اتَّهَمه بوساطتها، وعُزل. وفي أثناء تلك الأعوام الصاخبة من حياة "الكواكبي" التي تعرض فيها للظلم والسجن وصدورت ممتلكاته، كان يضع فصول كتابه (أم القرى)، كما كان يضع بعض أفكار كتابه (طبائع الاستبداد). وفي نفس الوقت كان حينها، ولكي يتخلص من إجحاح السلطة العثمانية عليه بالتعامل معها، إذ سلّمته قرارًا بتعيينه نائبًا شرعيًا في قضاء (راشيا) في ولاية سورية فتظاهر بالموافقة لكنه قرّر الهجرة إلى مصر سرًّا بحجة أنّه سيقوم بزيارة إلى ستنبول. وتمكن من الوصول إلى مصر في منتصف شهر نوفمبر 1899م، وفيها التقى بالمفكرين والأدباء في الحركة الفكرية، وذاع صيته أين نشر مقالات (طبائع الاستبداد) في صحيفة (المؤيد) لصاحبها "علي يوسف"، وأصدر كتابه (أم القرى) باسم مستعار هو اسم "الفراتي"، كما أصدر (طبائع الاستبداد) تحت اسم "الرحالة ك"، وكتب فصولاً من (أم القرى) في صحيفة (المنار) سنة 1900م. وفي سنة 1901م قام برحلة إلى المشرق زار فيها العديد من بلاد آسا وإفريقيا الإسلامية، وخلال رحلته دون خواطره ليصدرها في كتاب، ولكن وفاته المفاجئة حالت دون ذلك، وتوفي يوم الخميس ربيع الأولى 1220هـ الموافق 14 جوان عام 1902م في مقهى (يلدز) قرب حديقة (الأزبكية) بالقاهرة، وقيل أنه مات مسمومًا على أيدي أعوان السلطان "عبد الحميد الثاني" الذين دسوا له السم في فنجان قهوة.

قال فيه "العقاد": "أنه كان يعمل في إصلاح المجتمع الإسلامي وإصلاح الحكومة المستبدة، فلم يدعُ بابًا من أبواب المعرفة التي تعينه على قصده لم يأخذ منه ما يكفيه ويغنيه، ولم يزهّد في أصل من أصول هذه المعرفة إلا ما كان من قبيل الفضول في تحقيق غاياته القريبة وجهوده المرجوة. وقال عنه في موضع آخر: "الكواكبي" فكر كثيرًا، وأطال التفكير، في جميع المسائل التي بني عليها دعوته إلى الإصلاح، وهي دعوة محيطية بشؤون الشرق الإسلامي في زمنه على الإجمال، وشؤون الشرق العربي على التخصيص، وليست من الدعوات التي تتجه إلى ناحية واحدة أو تنحصر في جزء من أجزاء الحياة العامة التي تتفرق العناية بها بين أشتات من المصلحين.

فتمثلت أهم عناوين برنامجه الإصلاحي في الآتي:

1. الإصلاح الديني: الذي تلخص عنده في تحرير الإسلام من الجمود، الذي من أخطر آفاته هو جعل المسلمين صورة مقلدة ونسخة مستعارة، فهم مسلمون لذمة أسلافهم وليسوا لذمة أنفسهم، وهم مسلمون بالتبعية وليسوا مسلمين بالأصالة، يدينون بالإسلام انقيادًا منهم لمن تقدم ولا يحسبون أنهم أهل للخطاب

على حدتهم، وقد صدق فيهم ما نعاه الكتاب المبين على القائلين: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ﴾.

وعلاج هذه الآفة هو أن يعاد بالدين إلى بساطته الأولى التي يسرت فهمه لمن تقبلوا دعوته في صدر الإسلام ولا تزال تيسره لم يدعون إليه على بساطته وسهولته بين أبناء الشعوب الفطرية. ومن واجب المسلمين في كل زمان أن يفهموا دينهم وأن يعرفوا حكمة فرائضهم وعقائدهم، فليس من الإيمان الصحيح أن يحال الفهم على من سلف، وأن ينقاد الخلف كله لغير ما عرف، ولا يكمل إيمان المسلم بغير الفهم والاجتهاد في كل موطن من العالم في كل حقبة من الزمن، فإن تعذر اجتهاد المسلمين جميعاً فقيام العلماء بأمانة الاجتهاد فرض كفاية لا يسقط عن جيل من أجيالهم ولا سلامة لم يسقطونه عن أنفسهم.

كما يرى "الكواكب في هذا الشأن أن الجمود والخرافة لا محل لهما بين أتباع دين متسم بالبساطة والوضوح يأخذه خاصتهم وعامتهم مأخذ الفهم والبيئة على حسب عقولهم ومصالحهم، فإن التدين على هذا العرف بمثابة بعثة متجددة يتلقاها المسلمون أبداً وكأنهم هم المسلمون الأولون جيلاً بعد جيل. ومن جهة أخرى لم يغفل "الكواكب" عن خطته العملية لتحقيق الإصلاح في هذا الباب، فإنه يذكر صفة العالم الذي يؤهله علمه للاجتهاد بالرأي والإقناع بالدليل، ويذكر موضوعات الكتب ودرجات هذه الموضوعات التي يتكفل علماء الإسلام بنشرها للعمل بها أو لفائدة المقلدين على تفاوتهم في القدرة على الاستفادة من المطالعة والمراجعة، فينبغي للعالم المجتهد أن تتوفر فيه الصفات التالية:

. أن يكون عارفاً باللغة العربية المصرية القرشية بالتعليم والمزاولة معرفة كافة لفهم الخطاب لا معرفة إحاطة بالمفردات ومجازاتها وبقواعد الصرف وشواذه والنحو وتفصيلاته والبيان وخطافته والبدع وتكلفاته مما لا يتيسر إتقانه إلا لم يفني ثلثي عمره فيه.

. أن يكون قارئاً كتاب الله تعالى قراءة فعم للمبتادر من معاني مفرداته وتراكيبه مع الاطلاع على أسباب النزول ومواقع الكلام من كتبها المدونة المأخوذة من السنة والآثار وتفسير الرسول صلى الله عليه وسلم أو تفاسير أصحابه عليهم الرضوان.

. أن يكون متضلعا في السنة النبوية المدونة على عهد التابعين وتابعيهم أو تابعيهم فقط، بدون قيد بمائة ألف أو مائتي ألف حديث، بل يكفي ما كفى مالكا في موطأه وأحمد في مسنده.

. أن يكون واسع الاطلاع على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأحوالهم من كتب السير القديمة والتواريخ المعتمدة لأهل الحديث كالحافظ الذهبي وابن كثير ومن قبلهم، وكابن جرير وابن قتيبة ومن قبلهم كذلك، والزهري وأضرهم.

. أن يكون صاحب عقل سليم فطري لم يفسد ذهنه بالمنطق والجدل والتعليميين والفلسفة اليونانية والإلهيات الفيثاغورية وأبحاث الكلام وعقائد الحكماء ونزعات المعتزلة وإغريات الصوفية وتشديدات الخوارج وتخريجات الفقهاء المتأخرين وحشويات الموسومين وتزويقات المرانين وتمريقات المدلسين.

فإصلاح الدين عنده هو الدعوة إلى نبذ الخرافات والبدع والتقليد الأعشى والرجوع إلى القرآن والأخذ بمنهج السلف الصالح من هذه الأمة، وتجديد الدين وإصلاحه بتنقيته من الشوائب، ويقول في هذا أن

((الدين أفيون الشعوب)) كلمة قالها "لينين" إلى "جوركي" وهو يتجه إلى صورة (راسيوتين)، واصلاح الدين تنقيته من الدجل والخرافة ومحترفي الدين، وتجديد الدين رده إلى أصله والإيمان بأن الدين يدعو إلى العلم والعلم قوة. وقد هاجم "الكواكي" في قوة، وقال أنها ؟ أقحمت على مفهوم الاسلام النقي، ومن أبرز آثارها أنها رغبت المسلم في أن يعيش كالميت من قبل أن يموت، وعنده أن تعقيد الدين يرجع إلى العلماء المدلسين، ذلك أن بعض ناقضي العلم وضعفاء العزيمة تطلعوا إلى منزلة العلماء وهي فوق طاقتهم فدعاهم ذلك إلى تأويل القرآن تأويلا لا يحتمله نظمه الكريم ولا يتفق مع مبادئه العليا.

2. مقاومة الاستبداد: ويرى أن تقديس الأولياء راجع إلى استفحال عادة تعظيم الملوك حتى أن الناس يقيسون جبروت الله وسلطانة على جبروت ملوك الدنيا وسلطانهم، ولأن الملوك يختصون بتصريف الأمور العظيمة ويتركون لأنصارهم وأعوانهم أن يتصرفوا في الأمور الصغيرة، لهذا جعل الناس من يلجأ إلى الأولياء في قضاء المصالح كمن يلجأ إلى حاشية الملوك، ومن هنا تنشأ ((الوثنية)) وهي تقديس الإنسان لإنسان مثله فنشأ الذلة في نفسه وتنعكس على أعماله وتصرفاته، أما الإيمان الصحيح فيجعل الإنسان يشعر بأنه مساو لكل إنسان آخر. ويقول: قوام الإسلام رعاية العدل وكفالة الحرية وتحقيق العدالة وتوخي المصلحة العامة، وهو يوجب على الحاكم أن يستشير في أمور أمته الخواص ممن سمو بأهل الحل والعقد، ومن أجل هذا سلب الاسلام رجال الدين سلطتهم الدنيوية فخاطب الله تعالى نبيه قائلا: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾.

3. العدل الاجتماعي: طالب بتعميم العمل المثمر وتحريم الكسب غير المشروع ومنع التفاوت بين أفراد الأمة بغير أفراد الأمة بغير موجب تقتضيه الخدمة العامة، وإزالة التفاوت المفرط في توزيع الثروة بين الأفراد مهما أوتوا في الكفاية أو العمل، وإقامة المجتمع على التعاون والتضامن وإزالة العجز عن الكسب لمرض أو حرمان وتأميم المرافق العامة ومنع الاحتكار.

4. محاولة التوفيق بين الدين والعلم: ظهرت في أيامه دعوات تحاول التشكيك في مضامين القرآن ومناهج الإسلام لا يلائم روح العصر الحديث، وقد أثبت "الكواكي" أن الإسلام داعية العلم وفتاح صدره له، وقال أن كل ما كشف عنه العلم الحديث من مجهول له جذور في القرآن.

5. العروبة: وعنده أن العرب أقدم الأمم مدنية، بدليل سمو لغتهم وسمو حكمهم وأديانهم، وهم أحرص الأقوام على جنسيتهم، وعاداتهم وأحضرها على الحرية والاستقلال وابعاء الضيم، ولغتهم هي لغة المسلمين، وهم أقدم الأمم اتباعا لأصول تساوي الحقوق وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية، وأعرق الأمم في أصول الشورى، وأهوى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية وأحرص الأمم على احترام العهود عزة، واحترام الذمة الإنسانية، واحترام الجوار شهامة وبذل المعروف مروة. وعنده أن العرب هم أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا في الدين وقوة للمسلمين حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء فلا يأنفون من اتباعهم أخيرا. والوحدة العربية في مفهوم "الكواكي" أساسها الإيمان بالله وأول مقوماتها وحدة القيم والمثل، وترتبط العروبة عنده بتجديد مفهوم الإسلام وتجريده من الخرافات والبدع والفضول، وإجمالا فالأمة العربية عنده ذات رسالة يؤمن بها مسلمها ومسيحيا على السواء. فدعوته أن كانت تدعو إلى أن يعود العرب إلى أفضلهم

فيعودوا إلى القوة، وعنده أن كل اصلاح وطني بلا دين نكسة قريبة تدمر كل ما يبلغ الإصلاح من مراحل، فهو يقول: ((إن الذين يبرءون من دينهم لأنهم ينكرون صلة الدين بالقومة ليسوا من أمتنا، أنهم كالعناوين العربية على كتب مترجمة)).

وفي الأخير أن "الكواكبي" أجمل أسباب تأخر المسلمين في أسباب ثلاثة هي: دينية وسياسية وأخلاقية؛ ومن أهمها:

- . تأثير عقيدة الجبر في أفكار الأمة وأثر مذهب الزهر في نشر البطالة والكسل.
- . اختلاف الآراء في فروع أحكام الدين وأثره في تشويش الأفكار.
- . خطأ الاعتقاد بأن العلوم الطبيعية والفلسفة منافية للدين.
- . الحكم المطلق أو الدكتاتوري.
- . تفرق الأمة إلى عصابات وأحزاب سياسية.
- . الاستغراق في الجهل والارتياح إليه.
- . إهمال التربية الدينية الخلقية، وفساد التعليم والوعظ والخطابة والإرشاد.
- . إهمال تعليم النساء.
- . فقدان العدل والمساواة في الحقوق بين مختلف طبقات الأمة.
- . اضعاف الرأي العام بالحجر عليه واشاعة التفرقة فيه.

ويمكن القول أن "الكواكبي" عاش من أجل هدفين كبيرين: الأول؛ يتمثل في اصلاح المجتمع والبحث في أسباب تأخر العالم الإسلامي ومحاربة الاستعمار واصلاح الحكم ودعم مبادئ الحرية. أما الثاني فيتمثل في تطهير الاسلام من البدع والخرافات.

2. ساطع الحصري (1880- 1968)

يُعتبر ساطع الحصري من أبرز مفكري القومية العربية في العصر الحديث، ومن أهم الشخصيات التي أسهمت في صياغة الفكر القومي العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين. ارتبط اسمه بالدعوة إلى الوحدة العربية وبناء الهوية القومية على أساس اللغة والتاريخ المشترك، كما لعب دورًا بارزًا في تطوير التعليم الحديث في عدد من الأقطار العربية. وُلد ساطع الحصري سنة 1880م في مدينة صنعاء باليمن، عندما كان والده موظفًا في الإدارة العثمانية، وتنحدر أسرته من مدينة حلب السورية. تلقى تعليمه في إسطنبول داخل المدارس العثمانية، وتخرج في "المدرسة الملكية" التي كانت تُعدّ كبار الموظفين والإداريين في الدولة العثمانية. وقد تأثر في شبابه بالأفكار القومية التركية والإصلاحات الحديثة التي شهدتها الدولة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر، غير أنه تحوّل لاحقًا إلى الدفاع عن القومية العربية بعد انهيار الدولة العثمانية وظهور الحركات القومية في المشرق العربي.

بدأ الحصري حياته العملية موظفًا ومربيًا في الإدارة العثمانية، فتولى مناصب تربية وإدارية متعددة، وعمل مفتشًا ومديرًا للتعليم في بعض الولايات العثمانية. وبعد قيام الثورة العربية الكبرى سنة

1916م، انضم إلى الحكومة العربية التي أسسها الملك فيصل في دمشق، وتولى منصب مدير المعارف، حيث سعى إلى وضع سياسة تعليمية عربية تقوم على تعزيز اللغة العربية والتاريخ العربي في المناهج الدراسية.

عقب سقوط المملكة العربية السورية سنة 1920م وانتقال الملك فيصل إلى العراق، انتقل الحصري إلى بغداد، وهناك لعب دورًا محوريًا في بناء النظام التعليمي العراقي الحديث. فقد شغل منصب مدير المعارف العام، ثم أصبح من كبار المسؤولين عن رسم السياسة التعليمية في العراق خلال العشرينيات والثلاثينيات. وكان يرى أن المدرسة هي الوسيلة الأساسية لصناعة الأمة العربية وغرس الشعور القومي في نفوس الأجيال الجديدة، لذلك ركز على تدريس اللغة العربية والتاريخ العربي، وعدّهما الأساس الحقيقي للوحدة القومية.

تميّز فكر ساطع الحصري بتركيزه على مفهوم الأمة العربية بوصفها أمة واحدة تجمعها اللغة والتاريخ، بغض النظر عن الاختلافات الدينية أو الإقليمية، وقد تأثر في ذلك بالمفكرين القوميين الأوروبيين، وخاصة الفكر القومي الألماني. وكان يؤكد أن اللغة هي العنصر الأساسي في تكوين الأمة، وأن كل من يتكلم العربية ويعيش تاريخ العرب يُعد عربيًا، ولهذا اشتهر بقوله إن "كل أمة تتكلم لغة واحدة وتعيش تاريخًا مشتركًا هي أمة واحدة".

كما رفض الحصري فكرة الاعتماد على الدين كأساس للقومية، رغم اعترافه بأهمية الإسلام في التاريخ العربي. فقد رأى أن القومية العربية إطار شامل يضم المسلمين والمسيحيين وسائر أبناء الوطن العربي، وأن الرابطة القومية أقوى من الروابط الطائفية والإقليمية. لذلك دعا إلى تجاوز الانقسامات المحلية وبناء دولة عربية موحدة.

ومن أبرز القضايا التي اهتم بها قضية التربية والتعليم، إذ اعتبر أن بناء الوعي القومي لا يتحقق إلا من خلال المدرسة. وكان يرى أن الطفل العربي يجب أن يتعلم منذ الصغر تاريخ أمته ولغتها وأدائها حتى ينشأ مرتبطًا بهويته العربية. ولهذا السبب ارتبط اسمه بمشروع "التربية القومية" في الوطن العربي.

ترك ساطع الحصري عددًا كبيرًا من المؤلفات والدراسات الفكرية التي تناولت القومية العربية والتاريخ والتربية، ومن أهم مؤلفاته: آراء وأحاديث في القومية العربية، حول القومية العربية، ما هي القومية؟، العروبة بين دعواتها ومعارضها، أبحاث مختارة في القومية العربية، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، دفاعًا عن العروبة.

امتازت كتاباته بالأسلوب التحليلي والتاريخي، وكان يحاول دائمًا الاستناد إلى التجارب الأوروبية في بناء الأمم الحديثة، مع تكييفها مع الواقع العربي، وقد أثرت أفكاره في عدد كبير من الحركات القومية العربية، خاصة التيارات البعثية والوحدوية في المشرق العربي. انتقل الحصري بعد ذلك للعمل في جامعة الدول العربية، حيث ساهم في النشاط الثقافي والتربوي العربي، وظل يدافع عن مشروع الوحدة العربية حتى وفاته سنة 1968م في القاهرة.

ويُنظر إلى ساطع الحصري باعتباره "أب الفكر القومي العربي الحديث"، لأنه وضع الأسس النظرية للقومية العربية وربطها بالتعليم والثقافة واللغة، ورغم تعرض أفكاره للنقد من بعض الاتجاهات الإسلامية والقطرية، فإن تأثيره ظل كبيراً في الحياة الفكرية والسياسية العربية خلال القرن العشرين.

المصادر والمراجع:

- . القاضي سعد زغلول الكواكبي، عبد الرحمن الكواكبي السيرة الذاتية، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت .1998
- . سامي الدهان، عبد الرحمن الكواكبي (1854 . 1902)، دار المعارف، مصر.
- . عباس محمود العقاد، عبد الرحمن الكواكبي (الرحالة ك)، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، .1986
- . علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1897 . 1914، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت، 1987.
- . ماجدة حمود، عبد الرحمن الكواكبي، فارس النهضة والأدب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، .2001
- . محمد جمال طحّان، الأعمال الكاملة للكواكبي، ط 7، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006.
- . محمد عمارة، الشيخ عبد الرحمن الكواكبي هل كان علمانياً؟، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2006.
- . محمد عمارة، عبد الرحمن الكواكبي شهيد الحرية ومجدد الإسلام، ط 2، دار الشروق، القاهرة، 1988.
- مجموعة من المؤلفين، ساطع الحصري ثلاثون عاماً على الرحيل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، .1999